جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة الأولى)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

إفريقيا في مطلع العصور الحديثة

مقدمة:

أسمحوا لي بداية أن أقدم بعض ما قاله مشاهير المؤرخين والفلاسفة الأوربيين عن القارة الإفريقية:

فقد أعلن هيغل في محاضرة له عن **فلسفة التاريخ** عام ١٨٣٠ "***إن إفريقيا ليست جزءاً تاريخياً من العالم، فليس فيها تحركات ولا تطورات تعرضها، ولا تمتلك من حركات التاريخ ما هو منبثق عنها. فالقسم الشمالي منها ينتمي إلى العالم الأوربي أو الآسيوي، وما نعنيه على وجه الدقة عما تبقى منها هو الفكر المنافي للتاريخ، الفكر اللامتطور الذي لايزال مغلفاً بشروط الفطرة والذي يجب أن يعرض هنا على أنه لم يتجاوز عتبة التاريخ العالمي***".

أما أوجين بيتار، وفي كتابه **الأجناس البشرية**، الصادر عام ١٩٥٣ في باريس، فيقول "***أن الأجناس الإفريقية الحديثة / ما عدا الجنس المصري وقسم من إفريقيا الشمالية/ لم تساهم أبداً في التاريخ***".

وفي عام ١٩٥٧ كتب ب. غاكسون في مجلة باريس عن شعوب إفريقيا "***إن هذه الشعوب لم تعط شيئاً للإنسانية أبداً. ولابد أن شيئاً فيها هو الذي منعها من ذلك. فلم يظهر فيها إقليدس ولا أرسطو ولا غاليليه ولا لافوازيه ولا باستور. وملاحمها لم يتغن بها أي هوميروس***".

وحتى مؤرخ إفريقيا الشمالية الكبير شارل جوليان فقد وضع لإحدى فقرات كتابه عن إفريقيا عنواناً يقول أن إفريقيا بلاد بدون تاريخ حيث كتب "***إن إفريقيا السوداء، إفريقيا الحقيقية تتجنب التاريخ***".

وتأكيداً لأقوال هؤلاء المؤرخين، المتشربين بالأفكار العنصرية، رددت الكثير من الكتب والمراجع الأوربية مقولة ***"أن الكشافة البرتغاليين عندما شقوا طريقهم من بلادهم إلى الشرق، في القرن الخامس عشر، لم يصطدموا بقوة تذكر، ولم يتوقفوا عند حضارة مهمة"***

وكأنهم، أي البرتغاليين، شقوا أمواج البحر وساروا في أرض قفر، حتى اكتشفوا السواحل الشرقية لإفريقيا ورأس الرجاء الصالح، وحولوا طرق التجارة العالمية القادمة من الشرق إلى الغرب عبر العالم العربي وشرق إفريقيا والبحرين الأحمر والمتوسط.

ولكن الواقع العلمي والحقائق التاريخية تقول غير ذلك وبشهادة البرتغاليين أنفسهم. فقد كانت الصدمة الحضارية الأولى للبرتغاليين في ساحل شرق إفريقيا، حيث نمت هناك مراكز حضارية عربية إفريقية، أشاعت ازدهاراً اقتصادياً كبيراً في المنطقة، وتحكمت بخبرة أبنائها في ملاحة المحيط الهندي. وقد شهد بذلك أشهر الرحالة **البرتغاليين فاسكو دي غاما ودوراتي باربوسا**، الذي وصف المراكز التجارية على الساحل الشرقي لإفريقيا عندما وصل إليها بما يلي:

"ما إن وصلت المراكب الصغيرة التي كان يقودها فاسكو دي غاما إلى سفالة (جنوب موزمبيق) حتى فوجئت مفاجئة لم تكن تتوقعها، فقد لقي البحارة البرتغاليين ما لم يكن في حسبانهم، حين خرجوا يضربون في البحر، لقوا مرافئ تطن كخلايا النحل، ومدناً ساحلية عامرة بالناس، ورأوا مدناً مأهولة بالسكان لا تقل نشاطاً عن مدنهم في البرتغال، رأوا تجارة بحرية نافعة في الذهب والحديد والعاج والخرز وجلود السلحفاة، والأقمشة القطنية، وجدوا عالماً تجارياً أوسع من عالمهم الذي جاءوا منه، وأكثر ثراءاً من بلادهم، وحتى السفن كانت أكبر من سفنهم وأضخم حجماً".

وهذه شهادة برتغالية على قوة المراكز الحضارية الإفريقية في الساحل الشرقي، والتي بدأت مراحل الصدام العنيف بينها وبين الاستعمار البرتغالي القادم من وراء البحر.

ففي الفترة مابين نهاية القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، شهدت إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تأسيس ممالك وإمبراطوريات مهمة، عرفت ازدهاراً سياسياً واقتصادياً وثقافياً، جعل هذه القرون الأربعة تستحق أن يطلق عليها اسم **العصر الذهبي** في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. كانت مجتمعات

هذه البلدان وشعوبها تعيش حقبة من أزهى حقبها التاريخية حققت خلالها نهضة سياسية واقتصادية-اجتماعية عظيمة الأهمية.

فعلى المستوى السياسي، قامت شعوب إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بتشييد إمارات وممالك وإمبراطوريات شاسعة تمثلت:

-بإمبراطوريتي مالي وصونغي في السودان الغربي

- وكانم-بورنو، وإمارات الهوسا في السودان الأوسط في إفريقيا الغربية

- وممالك الكونغو ومونوماتابا في إفريقيا الوسطى

- ومملكة زيمبابوي في إفريقيا الجنوبية

- وإمبراطوريتي الزنج والحبشة في إفريقيا الشرقية.

وأسهمت هذه الإمارات والممالك والإمبراطوريات في بناء حضارة إفريقية زنجية مميزة. وقد ساعدها على ذلك الازدهار الاقتصادي الذي عرفته إبان تلك الحقبة بفضل علاقاتها التجارية مع العالم الخارجي ومن ثم ارتباط اقتصادها بالاقتصاد العالمي آنذاك.

فالمبادلات التجارية الناشطة خلال تلك الحقبة، بين بلدان إفريقيا الغربية جنوب الصحراء الكبرى وبلدان إفريقيا الشرقية، وقيام الأخيرة بتزويد أوروبا بمنتجات إفريقيا الغربية كالذهب بالدرجة الأولى، والرقيق والعاج والكولا وغيرها من المنتجات الكمالية، أمران أديا إلى ربط اقتصاد بلدان إفريقيا الغربية جنوب الصحراء الكبرى بالمبادلات العالمية، وأصبحت هذه البلدان بذهبها حاضرة بصورة أوضح في اقتصاد البحر الأبيض المتوسط.

في حين أن المبادلات التجارية الناشطة بين بلدان ساحل إفريقيا الشرقية مع الهند والصين وأسواق الشرق الإسلامية من جهة، ومبادلاتها التجارية عن طريق عدن مع بلدان شبه الجزيرة العربية ومصر، وبواسطة مصر مع أوروبا، من جهة أخرى، ربطت اقتصاد إفريقية الشرقية أيضاً بالاقتصاد العالمي. وقد شغل الذهب مكان الصدارة بين صادرات إفريقيا الشمالية (أهمها العاج، وجلود الحيوانات والحديد والذهب). ولابد أنه لعب دوراً مماثلاً في الأهمية للدور الذي لعبه ذهب إفريقيا الغربية في الاقتصاد العالمي.

وبهذا نستنتج أن القارة الإفريقية السمراء كانت في مطلع العصور الحديثة تساهم في دوران عجلة الاقتصاد في البلدان العربية وآسيا وأوروبا. وإقامة الإمارات والممالك والإمبراطوريات يشهد على أن مجتمعات إفريقية السمراء كانت معظمها على المستوى من التطور والتقدم لا يقل عنه في مثيلاتها في أوروبا وباقي أنحاء العالم آنذاك، ويدحض إدعاءات الغرب الاستعمارية إن إفريقيا السمراء كانت قبل مجيء الأوربيين إليها "قارة مظلمة" أو " متوحشة" و "بلا حضارة أو تاريخ".

أولاً– بداية تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر:

يمتد تاريخ إفريقيا الحديث منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر – وبالتحديد من العام ١٤٩٢ العام الذي شهد سقوط غرناطة آخر معاقل العرب المسلمون في الأندلس وبداية الاتصال المباشر بين أوروبا وساحل إفريقيا الشمالي والغربي، وكذلك العام ١٤٩٧ العام الذي شهد وصول فاسكو دي غاما إلى رأس الرجاء الصالح ودورانه حوله القارة الإفريقية ووصوله إلى ساحل إفريقيا الشرقي– حتى العام ١٩٤٥ تاريخ بداية نضال حركات التحرر الوطني في القارة الإفريقية من أجل الحصول على الاستقلال. بينما يمتد تاريخ إفريقيا في حقبتها المعاصرة من العام ١٩٤٥ وحتى الوقت الحاضر.

ثانياً– مصادر تاريخ إفريقيا في العصور الحديثة:

يغلب على تاريخ إفريقيا عموماً والحديث منه خصوصاً الكثير من الغموض، وبأنه لم يكتب من قبل الأفارقة أنفسهم وإنما كتب في معظمه بأقلام أجنبية، وكان ذلك سبباً في تعرضه للتزييف والتحريف من قبل الدول الأوروبية الاستعمارية التي تكالبت على أراضي القارة تتنازع فيما بينها لاقتطاع أكبر نصيب منها، مدعية أنها جاءت لتحضر أهلها الهمج وتخرجهم إلى نور الحضارة والتمدن(ومن هذه الأكاذيب أنها قارة بلا تاريخ وبلا حضارة وبأنها لم تساهم أبداً في التاريخ والحضارة العالمية ولم تعط شيئاً للإنسانية). وإزاء ما روج عن هذه القارة من تزيف وتشويه وتحريف كان لابد في البداية من التعريف بأهم مصادر تاريخ هذه القارة وتاريخ شعوبها وقبائلها لاسيما منها المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى التي كانت في غالبيتها أجنبية اللغة ويمكن تقسميها إلى الآتي:

١– سجلات التراث الشعبي والروايات الشفهية: التي حفظها الأفارقة ونقلوها من جيل لآخر عن تاريخ آبائهم وأجدادهم بالإضافة إلى كتابات المؤرخين الأفارقة والسودانيين أمثال **عبد الرحمن السعدي، ومحمود كعت، وأحمد بابا التنبكتي** وغيرهم.

٢– كتابات الرواد والرحالة والمستكشفون الأوروبيون: الذين أخذوا يذرعون القارة طولاً وعرضاً منذ منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وكان قد استفادوا من المساعدات التي أمدتهم بها العناصر العربية والإفريقية حيثما كان يوجد نفوذ عربي إسلامي في القارة، ومن أشهرهم: **دافيد لفنجستون، وهنري مورتان ستانلي، صمويل بيكر، ريتشارد بيرتون، جون سبيك، جيمس بروس، منجو بارك، وكلابرتون** وغيرهم وكتب معظمهم كتب وصفوا فيها رحلاتهم وتنقلاتهم واكتشافاتهم داخل

القارة.

٣– كتابات القادة والعسكريين الأوروبيين الذين اشتركوا في عمليات الغزو وحملات السيطرة على القارة مثل **شاليه لونج** الأمريكي الجنسية الذي عمل في خدمة الجيش المصري عام ١٨٧٠ ورافق غوردون في رحلته إلى المديرية الاستوائية لمحاربة تجارة الرقيق وجاب معه معظم أنحاس السودان ووصل حتى أوغندا ومن أهم مؤلفاته "حياتي في أربع قارات، وفي أواسط أفريقيا". **والميجور رونالد ماكدونالد** وهو ضابط إنجليزي عين محافظاً لمحمية أوغندا البريطانية وساهم في تصفية الوجود العربي الإسلامي فيها ومن أهم كتبه "الكفاح والبقاء في شرق إفريقيا البريطانية. والجنرال ونجت باشا الذي عمل في خدمة الجيش المصري وساهم في تحقيق أهداف بريطانيا في السودان وعين حاكماً عاماً له في العام ١٨٩٩. **والبارون فردريك لوغارد** الذي كان ضابطاً في الجيش البريطاني وشارك في الحلمة البريطانية على سواكن في العام ١٨٨٥، وعمل كإداري في أوغندا ونيجيريا ووضع أسس الحكم الغير مباشر الذي طبق فيها ومن مؤلفاته "حكم الوصاية الثنائي في إفريقيا الاستوائية البريطانية" وغيرهم الكثير.

٤– كتابات الإداريين الذين حكموا خلال الفترة الاستعمارية : وهم إما عسكريون أو مدنيون كانوا شهود عيان على الأحداث التي كتبوا عنها وإن كانت كتاباتهم لا تخلوا من العامل الشخصي ومنهم: **هارولد ماكمايكل** الذي عمل في خدمة الحكومة البريطانية في الهند والسودان وأوغندا وهو واضع سياسة جنوب السودان التي اسفرت عن فصله عن الشمال ومن كتبه (العرب في السودان، والسودان الانجليزي– المصري) وغيره

٥– كتابات المبشرين الذين عملوا في إفريقيا: والتي وصفت فيها المجتمعات الافريقية وعاداتها ومعتقداتها وتقاليدها بغية تعريف المجتمعات الأوربية بها وتمكين المبشرين من نشر المسيحية فيها من بينهم المبشر المشهور **دافيد لفنجستون** وصهره والد زوجته **روبرت موفات** وغيرهم.

٦– الكتابات الحديثة:

وتقسم إلى نوعين **الأول** كتب بأقلام كتاب أوروبيون أو أجانب ومن الأمثلة **نعوم شقير** سوري الجنسية التحق بخدمة الجيش المصري وشارك في جميع الحملات العسكرية التي ذهبت إلى السودان وتعد كتاباته مراجع هامة عن السودان اعتمد فيها على الوثائق الأساسية وتحرى فيها الدقة ومن أبرزها جغرافية وتاريخ السودان. **وشارلز سيلجمان** البريطاني الذي زار أماكن عدة في أفريقيا وقضى وقتا كبيراُ في أوغندا

وجنوب السودان ومن أبرز كتبه "القبائل الوثنية في السودان النيلي- الأعراق والقبائل الوثنية في السودان". و**هولت** الذي عمل مديراً لدار الوثائق السودان إبان العهد الاستعماري ومكنه ذلك من الوقوف على الوثائق المتعلقة بتاريخ السودان ومن كتبه "التاريخ الحديث للسودان". **وريتشارد هل** البريطاني الذي عمل إدارياً في السودان ومن كتبه "معجم السير الذاتية لبعض الشخصيات الهامة في مصر والسودان بين عامي ١٩٥١-١٩٦٧".

أما النوع الثاني من الكتابات الحديث فهو مؤلفات الوطنين من المؤرخين الأفارقة المحليين.